المباني الأساسية للطريقة الأويسية

محاورة مع مولانا
سيد تقي سيد حسين
الموسوي
حفظه الله



المباني الأساسيّة للطريقة الأويسيّة

محاورة مع مولانا
سيّد تقي سيّد حسين الموسوي
حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

التلميذ:

مولاي، هناك لبس كبير قد وقعنا فيه فيما مضى وربما يقع فيه الكثيرون ظنًّا بأن الطريقة الأويسية [1] هي كمثيلاتها من الطرق الصوفية. فلو تكرّمت حضرتكم الشريفة

[1] في كتاب "التصوّف عند الفرس" يذكر الدكتور ابراهيم الدسوقي شتا بعضاً مما عاينه لدى زياراته المتكررة للمدرسة الأويسية في إيران حيث يقول:

المدرسة الأويسية أو مدرسة آل عنقا، وكان لي حظّ معايشتها ودراستها عن قرب. وهي مدرسة جمعت كلّ عناصر العرفان الإيراني ولشيخها الحالي "محمد صادق عنقا شاه مقصود" ولد عام (١٩١٦ م) اهتمامات علمية ويعطي الكيمياء الجابرية اهتماماً خاصاً، ونظرة واحدة من مؤلفات الشيخ تدلّ على أنّ جميع روافد العرفان الإيراني قديمها وحديثها قد صبّت في هذه المدرسة. كتاب الشيخ كتابه " الزوايا الحياتية الخفية " رداً على عدة أسئلة من الأستاذ كريزل أستاذ الطب في جامعة شيكاغو، ورئيس الجمعية العالمية للأبحاث التي يعدّ الأستاذ عنقا عضواً بارزاً فيها، وفي تعليق على هذا الكتاب يقول الباحث الياباني يوشي ميكي مايدا: ((إن الموضوعات التي تحدث فيها الأستاذ عنقا تشمل العرفان والأدب الفارسي والعلوم العملية والأحياء والكيمياء العضوية والطاقة والعناصر والطبيعة وعلم النفس والعلوم الروحية والفلسفة وغير ذلك، كما قدم الأستاذ بروان تلميذ راسل وأستاذ الفلسفة في جامعات أمريكا لبعض رسائل الشيخ، وبيّن مدى أصالتها وانتسابها الكلّي لمدرسة العرفان الإيراني)).

وكذلك تحتوي رسالة الشيخ "مظاهر الفكر" على أنظار أخلاقيّة استنبطها من مجتمعنا المعاصر، وقدّم مقترحاته وعلاجاته.

وإلى جوار كلّ هذا، قدّم مولانا شاه مقصود دراسات عن الفكر العرفاني في كتابه جنته "جعبة الدرويش"، كما نظم بعض الأعمال الشعريّة العرفانيّة التي تنتسب إلى مدرسة العرفان الإيراني انتساباً كاملاً مع إضافة لمسة عصرية، ومنظومته "حماست حياة: ملحمة حياة" تتناول إلى جوار معانيها العرفانية بعض جوانب الكيمياء والطبيعة الحديثة وخواص المعادن.

والواقع أن الميدان الرئيسي الذي يرى مولانا شاه مقصود أنه يجب أن يكون المجال الحقيقي لاهتمام العرفان هو تقديم الإسلام إلى العالم المتعطّش للروحانيات والذي بَعُد العهد بينه وبين الدين، ولم يعد الدين مطروحاً فيه كحلّ سليم لكثير من المشكلات.

وهو يرى أنّ تقديم الإسلام في صورة متكاملة لن يتمّ اللهم إلا إذا جاهد العرفاء والمخلّصون في تخليص الإسلام من الشوائب التي علقت به بعد قرون الاستعمار البغيض وسيطرة أرباب الأديان الأخرى، تلك السيطرة التي أدت إلى طمس صورة الإسلام الحقيقية، ويرى أنّ هذه الصورة الحقيقية للإسلام إن ظهرت ـ فستنعدم الفروق المفتعلة بين المذاهب: فدين التوحيد لا مذاهب فيه في الأصل!

وإذا ظهر الإسلام بصورته الحقيقية ـ فلن يبدو العرفان كنحلة أو مذهب أو مسلك، بل سيبدو إسلاماً حقيقياً ومطلوباً وفي متناول الأيدي.

ويرى مولانا شاه مقصود أنّه لكي يؤدي العرفان هذه الرسالة، يجب أن يتخلّص أيضاً من الشوائب، وعندئذ يتجلّى في صورته الحقيقية المقنعة.

وليس من المناسب في العصر الحديث أن يقتصر فقط دور العرفان ـ وهو مشتق من المعرفة ـ على الأذكار والأوراد وكثير من الخزعبلات التي لحقت به في عصور الضعف. ولأنّ العرفان هو المعرفة، يجب أن يلمّ العارف بمعارف عصره إلماماً كافياً، لأنّه ليس من المناسب أن يتوصّل للمعرفة بوسائل كانت صالحة في عصور سابقة، فعلى السالك أن يكون ابن عصره تماماً، وإلا تعرّض للهزل والسخرية في هذا العصر الذي تكاملت فيه أسلحة المادّة تكاملاً تاماً، إذْ لكلّ عصر عرفانه والحقيقة واحدة، ولكن ليس جزافاً ما قيل: من أنّ الطرق إليها بعدد أنفاس بني آدم.

وكما أنّ رسالة الإسلام عالمية ـ يرى مولانا شاه مقصود ـ أنّ رسالة العرفان هي الأخرى عالمية، وهو في كتاباته الأخيرة ـ وخاصة الرسائل الأربع ـ يتوجّه بحديثه إلى المسلم وغير المسلم على السواء:

إلى المسلم حتى يعلم أسرار العبادة، ويعلم أنّ العبادة القائمة على العادة ليس عبادة بل عادة.

وإلى غير المسلم، ليبيّن له أنّ الإسلام في أدقّ حركات عباداته ـ ظاهرها وباطنها ـ دين إلهيّ من لدن حكيم خبير، وأنّه نجاة البشرية!

وفي "رسالة الصلاة" بيّن مولانا شاه مقصود أنّ هذا الركن من أركان الإسلام يحتوي في ثناياه ظاهراً وباطناً على المعنى الحقيقي للعبادة، وأنّ حركات الجوارح في الصلاة التي يؤدّيها المسلم على سبيل العادة تحتوي على التعبير عن توحيد الخالق الواحد، وهذه الجوارح تنطق بالشهادة، فتكون الصلاة

تناسقاً رائعاً بين حركات الجوارح والإقرار باللسان والإقرار بالقلب، ومن ثم اعتبرت الصلاة معراجاً، وهي أكمل العبادات، وأتمّ الأذكار، وتعتبر في حدّ ذاتها دليلاً على أنها نزلت من لدن حكيم خبير.

ويرى مولانا شاه مقصود أنّه من الممكن للعرفان أن يقوم بدوره العالمي على شريطة أن يكون عرفاناً عصريّاً. وفي زاويته يوجد المعمل إلى جوار المكتبة، وهو يصرّ على تسمية الطريقة بالمكتب: أي المدرسة، وإلى جوار ليالي الذكر، أيضاً ليالي البحث والمناقشة. وقلّ من أتباع الطريقة من لا يلمّ بلغة أجنبية، كلّ ذلك مع محافظة على التراث العرفاني من سماع ومن أصول للعلاقة التي يجب أن تراعى بين الشيخ ومريديه ؟

وهذا بالرغم من أن أصول الأويسية ترى أنّ الإنسان كما يولد وحيداً ويحيا في الحقيقة وحيداً ويموت وحيداً ويحشر وحيداً ـ عليه أن يسلك الطريق وحيداً!

كما ترى أنّ أسلوب الآخرين ـ وإن كان قد نفع الآخرين في السلوك ـ ربما لا يصحّ أسلوباً لكل إنسان، فالعلاج الذي ينفع مريضاً قد يقتل مريضاً آخر، ومن ثم فإنّ دور المرشد هنا " أو المعلم" لا يتجاوز الكليات، وليس له أن يتدخّل في دقائق السلوك عند المريد أو "المتعلّم"، ومن هنا يرى الأخير أنه مسؤول مسؤولية كاملة، هذه المسؤولية التي تشحذ خاطره، وإن كان المرشد هنا لا يزال يحتفظ بدوره القديم الخالد: أي استشراف المخاطر التي قد يقع فيها السالك، ولا يقتصر الدور في المدرسة الأويسية على هذا، بل يتجاوز إلى تربية كاملة عن طريق محاضرات ودروس يلقيها الشيخ في فروع المعرفة البشريّة كافة قديمها وحديثها.

وكلّ التراث السابق ـ في رأي لمولانا صادق عنقا ـ يجب أن يعتبر مقدمة، ومن هذا التراث يستطيع السالك أن ينطلق إلى آفاق أرحب عن طريق مطالعة باطنه، الكتاب الصامت الناطق، ولا يتمّ هذا عن طريق تعذيب الجسد كما قال السابقون، فكلّ هذا من فضول القول والعمل. وليس لتعذيب الجسد أي دور في الكشف عن الحقيقة، بل إن هذا الكشف موكول إلى التمركز واكتشاف الشخصية الإنسانيّة الثابتة أو الهويّة التي هي باقية على حالها بالرغم من أنّ الإنسان يتغيّر ـ طبقاً لتغيّر خلاياه ـ مرّات كثيرة طوال عمره، ولو لم تكن هذه الشخصية خالدة ما تقبّلت التعامل مع الخالد !

ويستطيع السالك أيضاً أن يكون فرداً بالمعنى الصوفي ـ وهو وسط المجموع ـ وذلك دون حاجة إلى شارة أو خرقة أو عزلة، فكلّ هذه مظاهر، والسير الصوفي باطنيّ في المقام الأول.

وبعد، فهذه قطرة من محيط الشيخ، لأنه لا يزال ـ أمدّ الله في عمره ـ معطاء خصباً، ومازالت الخانقاه في الكرج بالقرب من طهران تعدّ واحد فينانة في هجير الحياة المزعج، وتضم في اجتماعاتها نخبة من خيرة

علينا نحن العرب بمقالة توضح المباني الأساسية للطريقة الأويسية، تكون بذلك تأسّياً بمطارحات أستاذكم مولانا المعظّم حضرة **شاه مقصود محمد صادق عنقا** قدس سره [١] .

الأستاذ:

هناك خطأ فادح في الفكر البشري تقيم الطريقة الأويسية أمته ودرأه وعوجه. يمارس البشر هذا الفكر ويظنون أنهم يحسنون صنعاً. هذا الخطأ الفادح هو ظنهم بأن المعنى يمكن نقله بواسطة الألفاظ وأن الكيفيات تنتقل بالألفاظ. فلذلك فالبشر يمارسون

مثقفي إيران، وتقدّم دروساً تحت إشراف شيخها في المعارف كافة، فتعبر عن تلاحم الروح والمادّة أبلغ تعبير، ويكثر أتباعها يوماً بعد يوم لتثبت أنّ أرض إيران مهد العرفان ـ مازالت قادرة على البذل والعطاء !

[١] فمثلاً كتابه "السحر" الذي دوّن فيه الدكتور الياباني يوشي ميكي مايدا تمام مقابلته المفصّلة مع حضرة مولانا شاه مقصود قدس سره.

وأيضاً كتابه القيّم "الزوايا الحياتية الخفية" الذي كان موجهاً إلى (المؤسّسة الدولية للبحوث العلمية المختلفة) في العاصمة الأمريكية واشنطن في عام ١٩٧٥م كجواب شاف للأسئلة الستة عشرة - التي بعثوا بها إليه - عن المسائل الصعبة التي لم يستطع العلم حلّها حتى ذلك الوقت.

ولحضرة شاه مقصود قدس سره مؤلفات كثيرة نذكر منها:

نداء الآلهة، الحديد في الكيمياء القديم، أصول الفقر و التصوف، كرامات الصوفية، تأويل القرآن الكريم (في أحد عشر مجلّد)، الأوزان والميزان، مراتب المعرفة في القرآن، مظاهر الفكر، رسالة القلب، الهيكل المغناطيسي عند الانسان، جنته (الحقيبة) أو عالَمَ العارف، الحياة، العلماء المجهريين، الضربتان، الذكر، الصلاة، تطهير و تنوير القلوب، مقاصد الارشاد، الزوايا الحياتية الخفية، سرّ الحَجَر، مثنوي سير السائر و طير النادر، سير الخرقة، من أبواب الغيب، الطب الإيراني القديم، العشق و القدر، علم الأعداد، علم الأسماء، علم الأوفاق والمربّعات، حماسة أو ملحمة الحياة (قوائم التجريد)، غزليات، الكوكب في الأدب، الكيمياء القديمة، بستان الأمل، كنز النادر، الرؤى الصادقة، مزامير الحق، نيروان، الألوان السماوية...الخ

نشاطهم على هذا المبنى من دون أن ينتج جهدهم نتيجة تذكر. فهم يتكلمون كثيراً ويستمعون كثيراً ولكن من دون تطور في السلوك الروحي.

الشعار الأول الذي ترفعه الطريقة هو:

المعاني والواقع لا يمكن نقله بالألفاظ

والشعار الثاني هو:

الكيفيات غير قابلة للانتقال

وهذا هو النهج الصحيح في فنّ التعليم والتعلّم أو في فن المعرفة.

فإذا ألّفتُ ملايين الكتب في أوصاف العسل وكان القارئ أو المستمع لم يذق عسلاً في حياته فإن مجهودي لا يحقق له مذاق العسل.

وإذا ألّفتُ ملايين الكتب في العشق وكان القارئ أو المستمع لم يعشق في حياته فإن ألفاظي لا تنقل العشق إليه.

والطريقة الصحيحة للتعليم هو أن أعطيه عنوان البقال مثلاً كي يذهب هناك ويشتري العسل ثم يذوقه. فإذا ذاق العسل لم يحتج إلى هذه الملايين من الكتب.

والطريقة الصحيحة لوقوعه في العشق هو أن أدخله في السير والسلوك وأعلمه نهج السير والسلوك من أوراد وسهر الليالي وجهاد النفس.

أما إذا اكتفيت بسرد أوصاف العسل والعشق وكان القارئ أو المستمع لم يرَ عسلاً في حياته ولم يذق عسلاً في حياته أو أنه لم يعشق في حياته فإن مجهوداتي الجبارة تبوء

بالفشل. وإذا كان القارئ أو المستمع في (سرداب أفلاطون) [1] حيث لا يجد إلا أشكال الظلال فإنه يفكر أن العسل هو هذا الشكل مثلاً والعشق مثلاً هو الشكل الآخر من هذه الأشكال. بمعنى أنه يفهم حسب تجربياته في هذا السرداب المظلم، لا غير.

---

[1] وما أشبه قصّة سيد حسن المسقطي بقصّة أفلاطون عن السرداب المظلم، والشخص الذي أتى إلى السرداب من العالم الخارجي، والتي أشرنا إلى بعض تفاصيلها في هذا الكتاب. يقول العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان – قدس سره: "وأفلاطون هو صاحب حكمة الإشراق، وكان رئيساً لسلسلة الرواقيين، وكان يحصل له انكشاف للحقائق والمعارف الإلهية بواسطة الرياضات والمجاهدات الباطنية عن طريق تصفية الباطن" .

وما أقرب اشتباه الأمثال ! كما يقول مولانا علي عليه السلام. ومجمل القصّة أنّ جماعة من الناس كانوا يعيشون في سرداب مظلم، وقد ولدوا فيه وترعرعوا في داجيات غياهب دهاليزه، ومدلهمات أزقّته الضيّقة، وحنادس غرفه الكثيرة، قد مدّ الظلام رواقه الأسود في أغوارها، وعسعس الليل في جميع كهوفها وأوكارها، وتشابهت غياهب جبّها في كلّ مسالكها وأطوارها. فهم لم يروا النور في حياتهم ، ولم ينلهم شعاع دافئ من ضوء الشمس، ولم يطلّ عليهم سلسبيل بارد من نور القمر.

واستمرت حالتهم على هذا المنوال، إلى أن أتى إليهم شخص من العالم الخارجي، وبدأ يتكلّم إليهم بأشياء غريبة لم يعهدوها في حياتهم – عن عالم مشرق جميل، وروضة تزهر بالورود الحمراء، وتنتشر عليها الأنوار البيضاء، وعن حقول خضراء مترامية الأرجاء، وعن القبّة الزرقاء مزيّنة بالنجوم الزهراء، وعن الشمس وحرارتها وضيائها الذي يبهر العيون، وعن القمر ونوره الذي يلهم العاشق المفتون، ويثير دفائن الإبداع في الشاعر المحزون، وعن عبير المسك والورود والأزهار والرياحين، وعن صفير البلابل وخرير الجداول، وعن أنهار جارية ومناظر خلابة ساحرة، وعن غابات خضراء تظللها الأشجار الباسقة، وتغرّد فيها الطيور الصادحة، وترقص وتشدو وتروح وتغدو في ألوان خلابة زاهية، وغيرها الكثير من عجائب وغرائب لم تعهدها آذانهم من قبل.

والخطوة الأولى هو إخراجه من عالم الظلام إلى عالم النور بإعطائه نهج السير والسلوك حيث يرى ويشاهد معالم النور والهداية بالكشف والشهود في هذا الطريق الجديد.

يقول أستاذي وشيخي **صادق العنقا** قدس سره في كتابه السحر:-

" وجواب العرفان ليس بالألفاظ، لأن الألفاظ لا يمكن أن تنقل المعاني. فإذا كنت مثلاً عطشاناً، ووصفت لك الماء، هل يرويك ذلك ؟ والبتة أن الصيغة اللفظية للماء (ميم وألف وهمزة) لا تشبه، بأي حال من الأحوال، الماء الجاري الزلال الذي يرويك. فهذه الحقيقة واضحة وبديهية جداً، بحيث لا يتطرق إليها العرفان ".

فرابهم أمره وأهمّهم همّه، فبرموا به واستثقلوا ظلّه، وامتعضوا منه امتعاضاً شديداً. وظنّوا بأنّه يفعل ذلك ليتغفّلهم عن أموالهم، ورفعة جاههم ومقامهم، وليختلس من غفلة الناس وسذاجتهم غرّة، وينصب الحبائل لاستلاب الجيوب، وامتلاك أزمة الأمور. وإن أحدهم ليؤثر أن يتخطّفه الطير أو يسقط عليه كسف من السماء على أن يستكين لإغراءاته، أو يسكت على مؤامراته، فهم ينهون عنه وينؤون عنه.

إلا أنّ ثلّة منهم أظهروا الاشتياق إلى هذا العالم الجديد الذي يتكلّم عنه، وكبر هذا الشخص في ذرعهم، وألهب بيانه الشيق حماسهم، وأثار أشواقهم ودفائن أمنياتهم، فأقبلوا عليه في شوق وغرام، يستمعون إلى لذيذ كلامه ولطيف بيانه، وسلوا عن شهوات نفوسهم، وانقطعوا إلى السلسبيل العذب من كلمات حبيبهم. إلا أنّ كبار القوم، ومن ورائهم الأكثرية العاملة الجاهلة، لم يستسيغوا تلكم التحولات، ورأوا في السماء غمامة دكناء يوشك أن تنفجر بالصاعقة الكبرى. فعمدوا إلى المبادرة بإخمادها، وعندما لم يفلحوا وأعيت حيلتهم في إسكاته، صمّموا على إبعاده من أوساطهم.

وما أقرب اشتباه الأمثال ! وأشبه العارف بذاك الشخص الذي أتى من العالم الخارجي، ونزل إلى السرداب في ليلة حالكة الجلباب غدافية الإهاب !!

إن المبتدئ لا يكفيه هذا القدر من الأمثال. فليلتمس أمثالاً كثيرة التي ضربتها في فصل (وإنَّ الدِّين لواقعٌ) في كتابي (قدوة الفقهاء والعارفين) صفحات ٢٦٤ الى ٢٧١، حيث ذكرت:

يقول الله سبحانه في سورة الذاريات رقم ٥١ الآية ٦ : وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾. فالواقع لا يمكن نقله بالألفاظ والعبارات، ولا يمكن تفهيمه للآخرين بالألفاظ والعبارات. وكيفياته غير قابلة للانتقال من شخص إلى آخر. وكل ما هو غير الواقع والحقيقة فهو أوهام.

فأنّى لك أن تنقل بالألفاظ والعبارات الطنانة الرنانة واقع العسل مثلاً إلى الآخرين، وتفهيمهم ما هو واقع العسل، من مذاق وحلاوة وغلظة وميوعة وغيرها من مختصاته ! أما إذا كنت قد ذقت العسل، فما أقوله وأشرحه من أوصافه لا ينقل إليك شيئاً البتة، وإنما أحرك بأقوالي ذكرياتك أنت عن تجربتك لا غير ! أليس كذلك ؟ أما إذا لم تكن تحمل ذكريات عن تجربة تذوق العسل ، فما أقوله وأشرحه من أوصافه لا ينقل إليك إلا الأوهام ، أي ينقل إليك كل شيء غير واقع العسل. وأنّى لكيفيات الذي تذوّق العسل مثلاً وحالاته أن تنتقل إليك، ولو ألّف في ذلك آلاف الكتب، وألقى آلاف المحاضرات ! أما إذا كنت قد ذقت العسل ، فحالاته وكيفياته كمتذوّق العسل لا تنتقل إليك البتة، وإنما شرحه لها يحرك ذكرياتك أنت عن كيفياتك وحالاتك أنت كمتذوّق العسل. فإذا كنت قد ذقت العسل فلا تحتاج البتة إلى الألفاظ والعبارات الطنانة الرنانة لكي تحصل على مذاق العسل .

يقول الله عز وجل في سورة محمد رقم (٤٧) الآية ١٥: وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴿١٥﴾. وتعرف أن ما في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر !

أليس كذلك؟ فأنّى لواقع العسل المصفّى في الجنة أن ينقل إليك، بحيث تفهم ما هو مذاقه وحلاوته وغيرها من مختصاته ! فمثلاً لو سمعت آلاف المحاضرات وقرأت آلاف الكتب عن هذا العسل المصفّى في الجنة، ماذا يصل إليك ؟ وماذا تستفيد من هذه الآلاف من المحاضرات والكتب ؟ طبعاً لا يصل إليك غير الأوهام ، بمعنى ينقل إليك كل شيء غير واقع العسل المصفّى في الجنة ! أليس كذلك ؟ ولا تستفيد من هذه الآلاف من المحاضرات والكتب غير الأوهام ! أليس كذلك ؟؟؟

وماذا لو جاءك من تذوّق العسل المصفّى في الجنة، وشرح لك باللغة العربية الفصيحة البليغة كيفياته وحالاته، ومدى سعادته ونشوته وطربه وافتتانه، وانجذابه الروحي وذهوله، واستغراقه في ملذات هذا العسل المصفّى ! فبالله عليك قل لي هل تنتقل إليك كيفياته وحالاته، ومدى سعادته ونشوته وطربه وافتتانه، وانجذابه الروحي وذهوله، واستغراقه في ملذّات هذا العسل المصفّى ؟ بالطبع لا ! أليس كذلك ؟ ولو ألّف ذلك الوليّ آلاف الكتب وألقى آلاف المحاضرات في شرح هذا العسل المصفّى !!! فمن المحتمل جداً، يكاد أن يكون جزماً من اليقين، بأنك ستسخر منه وتستهزئ به، كما فعل الأوائل بأنبيائهم !!!

أما إذا وصلت إلى هذا العسل المصفى وتذوّقته، بعد الرياضات العرفانية والمعرفة بالله، ومراحل السير والسلوك المختلفة، واجتياز مراتب الإنسانية على الصراط، بتوفيق من الله سبحانه وتعالى، فطوبى لك ! فإنك حينئذ لا تحتاج إلى اللغة العربية الفصيحة البليغة، ولا إلى العبارات الرنانة الطنانة، ولا إلى آلاف الكتب والمحاضرات. فإنك حينئذ في واقع العسل المصفى ! كما كان محمد ص وأهل بيته الطيبون الطاهرون، وسلمان ومقداد وأبو ذرّ، والخواص من أصحاب النبيّ ص وعليّ ع ، والعرفاء وأولياء الله الصالحون .

وأنّى لك أن تنقل واقع الألم والعذاب مثلاً - من صداع الرأس أو معاناة الاحتراق بالنار - إلى الآخرين ، وتفهيمهم ما هو واقع الألم والعذاب ومعاناة الاحتراق بالنار ! أما إذا كنت قد عانيتها - لا سمح الله - فما يقوله الراوي ويشرحه من أوصافها لا ينقل إليك شيئاً البتة، وإنما يحرّك بأقواله ذكرياتك أنت عن تجربتك المريرة لا غير، لأنك اكتويت بنارها ! كما يقول المثل: **سل عن النار جسم من عاناها** ! أليس كذلك ؟ أما إذا لم تكن تحمل ذكريات عن تجربة آلام الصداع وعذاب معاناة الاحتراق بالنار، فما يقوله الراوي ويشرحه من أوصافها لا ينقل إليك إلا الأوهام، أي ينقل إليك كل شيء غير واقع الآلام والعذاب ومعاناة الاكتواء بالنار. وأنّى لكيفيات الشخص الذي عانى من آلام الصداع وعذاب الاحتراق بالنار وحالاته أن تنتقل إليك، ولو ألّف الآلاف من الكتب، وألقى الآلاف من المحاضرات ! أما إذا كنت قد عانيت من هذه الآلام المريرة - لا سمح الله فكيفيات الراوي وحالاته لا تنتقل إليك البتة، وإنما شرحه لذلك يحرّك ذكرياتك أنت عن كيفياتك وحالاتك المريرة. وإذا كنت قد عانيت آلام الصداع وعذاب الاكتواء بالنار - لا سمح الله - فلا تحتاج البتة إلى الألفاظ والعبارات لكي تفهم هذه المعاني المريرة.

يقول الله عز وجل عن أصحاب الشمال في سورة الواقعة رقم (٥٦) الآيات ٤١-٤٤ : وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾.

وتعرف أن ما يحصل في نار جهنم لا يمكن للبشر أن يتصوّره ! أليس كذلك ؟ فأنّى لواقع السموم والحميم في نار جهنم أن يُنقل إليك، بحيث يمكن أن تعرفه كما هو ! فمثلاً لو سمعت آلاف المحاضرات وقرأت آلاف الكتب عن السموم والحميم في نار جهنم، ماذا

يصل إليك ؟ طبعاً لا يصل إليك غير الأوهام، بمعنى ينقل إليك كل شيء غير واقع السموم والحميم ! أليس كذلك ؟

وماذا لو جاءك أبو جهل مثلاً، وشرح لك باللغة العربية الفصيحة البليغة كيفياته وحالاته، ومدى عذابه في سموم وحميم وظلّ من يحموم لا بارد ولا كريم ! فبالله عليك قل لي هل تنتقل إليك كيفيات أبي جهل وحالاته، ومدى عذابه في نار جهنم ؟ بالطبع لا ! أليس كذلك ؟ ولو ألّف الآلاف من الكتب وألقى الآلاف من المحاضرات !!!

وأنّى لك أن تنقل واقع السعادة والنفس المطمئنة مثلاً إلى الآخرين، وتفهيمهم ما هو واقع السعادة والنفس المطمئنة ! أما إذا كنت قد حظيت بنفسك بالسعادة والنفس المطمئنة، فما أقوله وأشرحه من أوصافها لا ينقل إليك شيئاً البتة، وإنما أحرّك بأقوالي ذكرياتك أنت عن تجربتك لا غير. أما إذا لم تكن تحمل ذكريات عن هذه التجربة الفريدة من نوعها، فما أقوله وأشرحه من أوصافها لا ينقل إليك إلا الأوهام، أي ينقل إليك كل شيء غير واقع السعادة والنفس المطمئنة. وأنّى لكيفيات صاحب (النفس المطمئنة) وحالاته أن تنتقل إليك، ولو ألّف في ذلك آلاف الكتب، وألقى آلاف المحاضرات ! أما إذا كنت قد نالك الحظ العظيم من هذه التجربة الفريدة من نوعها، فحالاتي وكيفياتي لا تنتقل إليك البتة، وإنما شرحي لها يحرّك ذكرياتك أنت عن كيفياتك وحالاتك كصاحب النفس المطمئنة. فإذا كنت قد نلت هذا الحظّ العظيم، فلا تحتاج إلى الألفاظ والعبارات الطنانة لكي تنال (النفس المطمئنة).

وأنّى للعاشق الولهان أن ينقل واقع الحب والهيام إلى الآخرين، وتفهيمهم ما هو واقع الحب والعشق. أما إذا كنت قد عشقت واكتويت بناره، فما يقوله العاشق الولهان ويشرحه من أوصاف العشق لا ينقل إليك شيئاً البتة، وإنما يحرّك بلوعته وشكواه

وبأشعاره وغزلياته ذكرياتك أنت عن تجربة العاشقين التي خضتها خوضاً لا غير. أما إذا لم تكن تحمل ذكريات الحبّ والهيام، فما يقوله ويشرحه العاشق الولهان من أوصاف الحبّ والهيام لا ينقل إليك إلا الأوهام، أي ينقل إليك كل شيء غير واقع العشق. وأنى للعاشق الولهان أن تنتقل كيفياته وأحواله إليك ! أليس كذلك ؟ فعشقه وهيامه لا ينتقل إليك البتة، وإنما لوعته وشكواه وأشعاره وغزلياته تحرّك ذكرياتك أنت عن عشقك وهيامك وولهك. أليس كذلك ؟ فإذا كنت قد عشقت واكتويت بناره، فلا تحتاج البتة إلى الغزليات لكي تحصل على الحب. إلا إذا أردت أن تتناغم وتترنح مع العشاق في حديثهم وأشعارهم وغزلياتهم !!!

بِاللّهِ يَا ظَبَيَـــاتِ القَـــاعِ قُلْـــنَ لَنَـــا لَـــيْلايَ مِـــنْكُنَّ أَمْ لَـــيْلَى مِـــنَ البَشَـــرِ

أو ما يقوله المتنبي مثلاً:-

سَـــفَرَتْ وبَرْقَعَهـــا الفِـــراقُ بِصُـــفْرَةٍ سَـــتَرَتْ مَحاجِرَهـــا ولم تَـــكُ بُرْقُعَـــا

فكأنّهـــا والـــدّمْعُ يَقْطُـــرُ فَوْقَهـــا ذَهَـــبٌ بِسِـــمْطَيْ لُؤلُـــؤٍ قـــد رُصّـــعَا

أما أن يدبّ العشق فيّ دبيباً، ثم أستطيع أن أنقل إليك حالات العشق وكيفياته وآلامه ومتعه وملذاته، بالكلام واللفظ والعبارة، بحيث أن تصبح عاشقاً مثلي، وتدبّ فيك حالات العاشق الولهان وكيفياته وآلامه ومتعه وملذاته، فإن ذلك من المستحيلات، كمن يبتغي الصيد في عريسة الأسد !!!

وبذلك نتوصل إلى القانونين اللذين صاغهما شيخي ومولاي صادق العنقاء قدس سره في هاتين العبارتين الموجزتين وهما :

الواقع والمعاني لا تنقل بالألفاظ

والكيفيات غير قابلة للانتقال

كذلك الدين لكونه واقع لا يحصل لك بالكتب والمحاضرات والمؤلفات الفقهية، ولكنك إذا عرفت الله، فمعرفته أوّل الدين، كما قال مولانا ومقتدانا الإمام عليّ عليه السلام. ومعرفة الله سبحانه وتعالى مسألة وجدانية محضة لا تحصل لك إلا بالاستقرار في حقيقة وجدانك النورانية.

يقول أستاذي وشيخي صادق العنقا قدس سره في كتابه السحر :-

إن مجال العرفان العملي هو معرفة الحقيقة والواقع الذي هو الدين بعينه. والمعرفة الحقيقية تحصل لك عندما تجد في حقيقة (أنا) الأجوبة على كل هذه الأسئلة .

يقول العرفان بأن الأدوات ليست هي (أنا) الذي هو الهوية الثابتة. فالأدوات شيء والهوية الثابتة شيء آخر. وخلايا المخ هي من جملة الأدوات. ولأن هذه الأدوات ليست هي (أنا)، فهي لا تستطيع تعريف (أنا). أما تعريف (أنا) وقواه الفاعلة والمنفعلة فهو في مجال العرفان الفلسفي. ولكن كشف الحقيقة والواقع كما هو - بعيداً عن كل ريب وشك وظن وحسبان - فهو في مجال العرفان العملي. والعرفان العملي لا تتطرّق إليه الشكوك والظنون للسبب التالي :-

فإما أن يكون الخالق قد أعطانا وسائل المعرفة وأدواتها، أو أنه لم يعطنا. وإذا كان لم يعطنا، أو لم يعطنا حتى الآن، فذلك هو النقص في الخلق بعينه والعياذ بالله ! وذلك هو التأخير في العطاء بعينه والعياذ بالله!

هل أنك في الوقت الحاضر تحتاج إلى شيء لم يفكر فيه الخالق ولم يقصد إليه ؟ فساد هذا المعنى واضح وضوح الشمس. وأما إذا كان قد أعطانا فما هو هذا الشيء ؟

أنا أقول إنها الوجدانيات يعني (أنا) يعني ما هو موجود عندك. لا يهمنا التعريفات التي صاغها الآخرون.

هذه المسائل وعجز الإنسان تجاهها قد جعلت مدرسة العرفان والعرفان العملي - أي الاستقرار في الواقع - لازمة وضرورية. ومن ناحية أخرى فقد وجدنا بأن كل إنسان متفكّر، الذي لم يتوقف طرفة عين عن التفكير في نفسه وفي كل ما حوله، قد شعر بلزوم العلم لزوم الهواء الذي يتنفسه، وهو يريد أن يعلم. فالذي يريد أن يعلم، ويحسّ بأن حاجته إلى العلم في مقابل هذه الحقائق قد أصبحت ملحّة، قد خطا الخطوة الأولى لا شعورياً في العرفان العملي. ولكن الذي أصابه العجب والكبرياء، ويظن بأن إظهار العجز يحط من قدره، فقد وقع إلى الأبد في ضلال بعيد. فمثل هذا الشخص قد أصبح بعيداً عن التعريف المبسّط جداً للعقل والعاقل.

لقد قالوا بأن العاقل هو الذي يجلب المنفعة لنفسه ويدفع الضرر عن نفسه، يعني العاقل من كانت لديه الوسيلة لتمييز نفعه عن ضرره. وبعد هذا التمييز يجلب المنافع لنفسه، ويبتعد عن مواقع الضرر.

ما هو ميزان التمييز بين النفع والضرر في منطقة الحقائق التي هي بعيدة عن متناول الحواس ؟ هل الإنسان نفسه ميزان ؟ أو أن ميزان الحقيقة هي الحقيقة نفسها ؟ فإذا كانت النفس لم تصل إلى جزء من الحقيقة (في نفسها) ، يكون عالم الحقائق مخفيّا عنها، ولما ترفع الحقائق البرقع عن وجهها.

وهذا الجزء من الحقيقة الذي يجب أن نعرف هو الوجدان، وهو المعيار والميزان الذي لا يخطئ، والذي يميز بين الخير والشر. وإذا لم يكن الوجدان، أو (أنا) الواعي الذكي، دليلنا إلى التمييز بين الصحيح والسقيم، لكانت مسيرة حياتنا متزلزلة وغير مطمئنة.

وحتى إذا وصلنا إلى أعلى مراتب العرفان الفلسفي والاستدلالي، ولم يكن لدينا هذا الميزان، لكنا كالأعمى في دهليز مظلم، يمشي والعصا في يده، يحسّ دوماً بنوع من الشكّ والخوف من كل ما حواليه. هذا إذا كنا نمشي في دنيا العرفان الفلسفي بدون خطأ، ومن دون عثرة، ولم نكن أسرى العبارات الطنانة، وكنا مطمئنين من كل استنتاجاتنا الفلسفية، وإلا فحياتنا كلها غريقة في الشكوك.

تأمّل قليلاً مسلك الشخص الذي يعظنا بأن لا نعتني بالدنيا وأمورها اليومية، وأن نترك الدنيا بمعنى الإهمال والتساهل وطلب الراحة والاتكالية، هل نستطيع أن نعتبر مثل هذا الشخص معلماً عرفانياً ؟ في حين أننا قلنا بأن العرفان عملي، ولم نقل بأن العرفان كلام وألفاظ. وقد قال نبينا وشارع الإسلام المقدس ص: " **الدنيا مزرعة الآخرة** ".

فلا بد أن يكون هناك نوع من الأعمال في الدنيا، ينتهي بنا إلى عاقبة طيّبة في الآخرة.

تأمّل قليلاً ما هي المبررات بأن تبقى جائعاً وعطشاناً، في حين أن لديك الطعام والشراب ؟ ألا تكون مثل هذه الأعمال تخلّفاً عن القوانين الطبيعية ؟ وهل لا يكون الشخص مريضاً وهو يجمع أكثر مما يحتاجه ؟ إن الإفراط والتفريط في كل شيء يسلب عنا الطمأنينة على الدوام. فالطمأنينة لا تحصل لك في الجوع، ولا في إجراء طقوس ومراسم خاصة، ولا في الرياضات الشاقة وغيرها. حقيقة العرفان لا تقع في طمع الطامعين والأغنياء، ولا في عري المتسكعين وجوعهم.

العرفان هو في مجال حقيقة (أنا)، ومعرفة النفس التي تنتهي بنا الى معرفة الله. لا أحد يستطيع أن يأخذك في هذا الطريق، ولا أن يمنعك، لأن كل نفس لا تستطيع أن تعرف الغير كما تعرف نفسها. ولا أحد يستطيع أن يعرفك كما تعرف نفسك، ولهذا فلا

يستطيع أن يميّز نفعك عن ضررك. في الدين غيرك مخلّ بسلوكك وسعادتك وطمأنينتك. طمأنينتك في هذا الطريق هي وحدتك، لأن طريقك في مسيرة ووجهة لا ينطبق معها غيرك. وجود الغير هناك محال ، وتصور الغير شرك.

فلا مناص من أن تمشي قدماً وحدك في هذا الطريق، وفلاحك هو في وحدتك.

إذا تأملت جيداً، فقد أوضحنا في هذه السطور أصلين أساسيين من أصول العرفان الإسلامي:-

الأول هو الوجود الذي هو خالق موجوديتك.

والثاني هو العدل الذي يهبك الحياة في سيرك الوجودي، ويهب لك السعادة والطمأنينة، وهذا ما يجب فهمه. انتهى,

والسيد حسين العالم قدّس سرّه [1] يتكلم عن النور الحقيقي الذي آمن به رجال الله، **وعلموا عن طريق الكشف واليقين**، بأن العالم موجود كظاهرة من نور الوجود، وأن

---

[1] السيد حسين العالم هو والد السيد تقي وقد سمي عالماً لوسعة علمه. توفي عام 1983 عن ٧٨ عاماً من عمره الشريف. ولد في العراق عام ١٩٠٥. وقبره في مطرح- عمان وفوق قبره قبّة جميلة بنيت له تقديراً من وطنه عمان. وأيضاً العارف الكبير السيد حسن المسقطي هو عمّ السيد تقي وقد تربّى السيد تقي في أحضان هذه العائلة العالمة العارفة بالله. سجلهما الطاهر معروف في عمان وحتى في القارة الهنديّة وكشمير وشرق أفريقيا وبلدان الخليج وشرق السعودية والعراق وإيران ولبنان. لذلك حينما ذهب سيد تقي إلى ايران ووجد الطريقة الأويسية في عام ١٩٧٦ تلقّفها تلقّف الكرة كمن يجد ماء في رمضاء الصحراء الملتهبة. وقيل عنه حينئذ (لقد سار مسيرة ١٠٠ عام في ليلة واحدة) ، حيث وجد ضالته التي كانت تعشقها فطرته الصافية وتبحث عنها روحه الظمآنة. فارتوى منها ريّاً روياً هنيئاً سائغاً لا ظمأ بعده أبدا ، كأنها شراب الخلود. يقول الله جل وعلا في سورة الإنسان: وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾. ومنذ ذلك الحين أتغنّى بما قاله با يزيد البسطامي:

شَرِبْــتُ الحُــبَّ كَأسـاً بَعْــدَ كَأسٍ　　فَمَـا نَفِـدَ الشَّــرَابُ وَمَـا ارتويْـتُ

وأعقب عليه بأشعار مني أتمتم بها في تناغم مع تسبيح الخلائق بالغداة والعشي كأنها خليّة من خلايا النحل ولها دوي كدوي النحل:

ومـا عهـد الخلائـق مـن شراب　　عـلى درب الخلـود بـه سـقيت

وفي هـذا الـشراب حيـاة قلـبي　　حيـاة الخلـد لا مـت ولا فنيـت

سـقانا ربنـا طهـراً طهـوراً　　بقـاء الخلـد لا سـقم ولا مـوت

سـقيت بجـوده كأسـاً دهاقـاً　　بفضـل منـه للعليـا سمـوت

ومـا قـدري ومـا وزني لديـه　　بفضـل الله بالسـقيا نجـوت

فـما استحققت يومـاً مـن عطـاء　　بفـيض الـرب فـزت كيـف شـئت

أفـاض الـودق في كـرم و جـود　　فـأرضي أنبتـت وأنا ربـوت

ففقـري في الـورى للخـير صرف　　وخـير الله مـن فـوقي رجـوت

ومـزن الله إن درت أصـابت　　عطـاشى في الـورى مـثلي رويـت

قـداح أعـوزت مـن كل حشـو　　فسـال الفـيض فيهـا فاسـتويت

مفـاقر قـد خلـت مـن كل شيء　　تجـلى الله في كما ابتغيـت

كمالات العالم وحركاته وسكناته هي تجليات هذا النور، وأن لا موجود إلا وجود. فكل الكائنات عدميات من حيث الأصالة، وإنما أصالة الوجود هي في النور الإلهي، الذي هو الوجود البحت البسيط. ويقول قدس سره أن رجال الله **علموا عن طريق الكشف واليقين**، بأن نور الوجود تختفي في مقابله الظلمات، وإذا فاضت إضافته الإشراقية على شيء نوّرته بنوره، وجعلت منه آية وجودية. وإذا فاضت على قلب عبد، جعلته محواً في جماله، وجعلت صاحب ذلك القلب يتجافى عن غيره. **وعلموا عن طريق الكشف واليقين**، بأن العالم كله منوّر بهذا النور الحقيقي، من دون أن ينقص من ذلك النور شيء. وأن العالم كله ، في قوس صعوده، فانٍ في ذلك النور الحقيقي، من دون أن يزيد على ذلك النور شيئاً.. انتهى.

وإذا أردت أن تفهم ماذا يعني السيد حسين قدس سره بالنور الحقيقي الذي هو كل شيء، ولا وجود لشيء غيره، فأقول لك لا يمكنك أن تفهم ذلك إلا أن تشاهد النور بالكشف والمشاهدة واليقين، وذلك عن طريق العرفان الإسلامي، والاستقرار في حقيقة الوجدان النورانية، تماماً كمثال العسل المصفى، والنفس المطمئنة، والألم والعذاب، ونار السموم والحميم، والحب والهيام، الذي ضربته آنفاً. أما الظنون الذهنية فهي ضرب من الأوهام لا غير، ولا تمت إلى الحقيقة والواقع بشيء.

ويقول السيد حسين العالم قدس سره:- "طوبى للذين وصلوا إلى المقام الثالث، الذين كانوا في جوار النور ردحاً من الزمان، إلى أن وصل بهم العشق والهيام، إلى أن التعين الذي عرفوه من أنفسهم ذاب وانصهر، ودخلوا في جذبة الرحمن [1] ... والآن جاء وقت الكلام ... فعندما يصل العبد إلى هذا المقام، لا يبقى هناك إلا المحبوب

[1] كما جاء في الحديث الشريف: "جذبة من جذبات الرحمن تعادل عبادة الثقلين".

الحقيقي، فكما أن الفراشة عندما تحترق بالنار، لا يبقى منها إلا النار، كذلك السالك حينما يفنى في النور، لا تبقى منه إلا النورانية. وعند وصوله إلى هذا المقام، بأي طرف يرنو بنظره لا يرى غير الله، وعندما ينظر إلى نفسه لا يجد لنفسه أثراً، فتخرج الصيحة منه بلا اختياره "لا إله إلا أنا فاعبدوني" ، أو "سبحاني ما أعظم شأني" ، أو "ليس في جبتي سوى الله تعالى". لماذا يقول ذلك في حين أنه ليس الله ؟ يا عزيزي كلما يرنو بنظره لا يرى نفسه ... فهو فاني، فماذا يفعل فإنه لا يرى غير المحبوب. وعندها يتكلم لا بلسانه، بل بلسان الله يتكلم[١] . أتتعجب من مقالي ؟؟؟ في حين أنك تقول إذا حلّ الشيطان برأس، فإن صاحب ذلك الرأس يتكلم بلسان الشيطان. أليس كذلك ؟؟؟ أو تقول إذا شربت قارورة من الخمر، فإن سكر الشراب يظهر منك. أليس كذلك ؟؟؟

فيا أيها المسكين أيكون ربك أقلّ من الشيطان ومن الخمر ؟؟؟ فعندما يتجلى نوره في القلب، ويحرق قلب المؤمن ويفنيه، فإن ذلك المؤمن يتكلم باللسان الإلهي. أو أنه إذا نوّر العارف بنوره، وإذا أسكره بخمر الوحدة [٢] ، أيمكن أن لا يكون العارف متجلياً بالوجود الالهي ؟؟؟ فيا عزيزي الحقيقي اذهب والتمسه..

أو ما سمعت قوله تعالى في سورة الأنفال رقم (٨) من الآية ١٧ : " وَما رَمَيتَ إِذ رَمَيتَ وَلـكِنَّ اللَّـهَ رَمى" ﴿١٧﴾، كيف أن يد النبي ص أصبحت يد الله !!! أو ما سمعت

---

[١] وهذا موجود في الحديث القدسي: " لايزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت بصره الذي يبصر به، وسمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يسعى بها، فبي يبصر، وبي يسمع، وبي ينطق، وبي يبطش، وبي يسعى، وإن استعانني أعنته، وإن دعاني أجبته".

[٢] إنما هي وحدة الوجود حيث لا يبقى إلا "التوحيد". فالتوحيد يتجسّد في مقام حقّ اليقين، بعيداً عن الألفاظ البرّاقة والعبارات الطنّانة، كما يقول إمامنا عليّ عليه السلام في آخر حديث الشراب: " **وإذا اتصلوا لا فرق بينهم وبين حبيبهم**".

"السلام عليك يا ثار الله"، كيف أن دم الحسين عليه السلام أصبح دم الله تعالى !!!، هل ترى ذلك بعيداً، أن يأخذ بيد أحد محبيه وشيعته، ليوصله إلى الرحمن وإلى الفناء فيه ؟.انتهى.

يجب أن يفهم الناس أن الدين لواقع والواقع لا ينتقل بالألفاظ والعبارات الرنانة وإنما يتحقق بالنور الباطني في الإنسان المستمع ذاته وأن النور الباطني لا يتحقق إلا بمعرفة الله وأن معرفة الله لا تتحقق إلا بمعرفة النفس كما قال حبيبي رسول الله ص: "**من عرف نفسه فقد عرف ربه** ."

يجب أن يفهم الناس أن الدين الذي بأيديهم إنما هو أوهام في ذهنياتهم وأن الله الذي في أذهانهم هو مجرّد أوهام ومخلوق منهم ومردود إليهم كما قال إمامنا الباقر عليه السلام:

"كلّ ما ميَزتموه بأوهامكم بأدقّ معانيه فهو مخلوق منكم ومردود إليكم".

يعني الناتج عن تمييزاتكم في أدق معانيها، هو مخلوقكم الفكري، ولا يستحق العبادة ، أي أنه ليس من الحقيقة في شيئ. وهذا الأمر هو من الأصول والقوانين التي يجب أن تراعى في مكتب العرفان الإسلامي في الطريقة الأويسية.

وعندما يكتشف الإنسان فداحة واقعه الذي يعيش فيه يستيقظ من سباته ويبكي كثيراً على جهله. وهذا بداية السير والسلوك الى الله.

وهذا ما أمرني به سيّدي ومولاي **صلاح الدين علي نادر شاه عنقا** قدّس سرّه [١] أن أنشره في بلاد العرب كي يستيقظوا من سبات الجهل.

---

[١] حضرة صلاح الدين علي نادر شاه عنقا "حضرة بير" قدس سره، نجل حضرة شاه مقصود قدس سره، والقطب الثاني والأربعون للطريقة الأويسية، وحالياً يمكن للملايين الاطلاع على أحدث محاضرات "حضرة بير" من خلال بث الويب من خلال موقع المكتب على الانترنت. من مؤلفات "حضرة بير": مثنوي الروائح، مقترب، السلام، الالهام، التصوف: حقيقة الدين، الإيمان، كنز السلوك،

وكما ترى فإن الطريق الوحيد لمعرفة النفس ومن ثم معرفة الله والنور الباطني والدين الحقيقي هو العمل العمل العمل فقط لا غير، والكلام هو لإعطاء العنوان وتحريك الذكريات الباطنية فقط لا غير.

إنه عمل الصالحات الذي ذكره الله تعالى في سورة ص: إلاَّ الَّذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ وقليل ما هم. وهذا الطريق القصير إلى الله جل وعلا لا يوجد إلا في نهج عليّ عليه السلام وسلمان المحمديّ وأويس القرنيّ رضوان الله عليهما ومن ثمّ الطريقة الأويسية.

التلميذ:

ما هي المباني الأساسية لمعرفة الله في الطريقة الأويسية ؟

الأستاذ:

إنك لن تعرف الله إلا حينما تعرف نفسك، وأنك ما لم تعرف الله فكيف تكون داخلاً في الدين ؟ فإن (أول الدين معرفته) كما يقول مولانا ومقتدانا أمير المؤمنين وإمام المتقين وسيّد الوصيين وقدوة العارفين عليّ عليه السلام.

إن الله تعالى ظاهر للعيان، وهو من شدّة ظهوره مخفيَ عن العيون. إن في نفسك جزء من الحقيقة الكبرى، وهي تنطوي تحت عباءة هذا القانون الذي أعلنه شيخي العارف الكبير الشيخ **صادق العنقا** قدس سره:-

الوجود الذي لا يتغيّر ، بين زمانين متمايزين،

هو الوجود الأصيل الذي لا يفنى

كلمة السر، همسات المناجاة، التَفَس: الانقباض و الانبساط في الوجود، نظرية "أنا": النظرة اللامحدودة لممارسة الحكم ،التصوف، جسر بين الأديان...الخ.

ففي نفسك تنطوي حقيقة الوجدان النورانية، أو (أنا)، أو هويتك الثابتة، أو العالم الأكبر - سمّه ما شئت - وهو الوجود الأصيل الذي لا يفنى. اسأل عن الـ (أنا) الذي فيك هل تغيّر شيء فيه من طفولتك إلى فتوّتك إلى كهولتك إلى شيخوختك - ٢٠ عاماً ٤٠ عاماً ٦٠ عاماً ٨٠ عاماً أو حتى ١٠٠ عام أو أكثر - أو أنه ظلّ على حاله لم يتغيّر أبداً؟ وإذا اكتشفته بتفاصيله، عرفت أنه المعيار الثابت الذي لا يتغيّر، والذي به تعرف الله سبحانه وتعالى. فحينذاك تكون النفس قد وجدت ذاتها فتخرج من محيط الموت.

فلقد قال الله تعالى في سورة الأنعام الآية ١٢٢: أَوَمَن كانَ مَيتًا فَأَحيَيناهُ وَجَعَلنا لَهُ نورًا يَمشي بِهِ فِي النّاسِ ﴿١٢٢﴾

فبهذا الميزان، وهو الجزء من الحقيقة الكبرى التي فيك، تتعرّف على الحقيقة العظمى ألا هو الله سبحانه وتعالى. وفي هذا تنطوي مصداقية الحديث النبوي الشريف:- **"من عرف نفسه فقد عرف ربه"**.

فالسالك الذي نفذت معرفته في تفاصيل (أنا)، ووجدت نفسه ذاتها، يكون (أنا) هو الذي يتكلّم عن الحقائق الكونية، بكلّ جزم وقاطعيّة وثبات، ومبرّأ عن الشكوك والظنون.

فإذا قال يجب أن تملك الدنيا لا أن تملكك الدنيا، وأن تملك المال لا أن يملكك المال، وأن تملك الشهوة لا أن تملكك الشهوة، وأن تكون سيّد الدنيا لا عبدها، وأن تكون سيّد المال لا عبده، وأن تكون سيّد الشهوة لا عبدها، فهو (أنا) الذي يتكلّم بكلّ جزم وثبات. وإذا صلّى فإنه (أنا) الذي يصلي بحضور القلب، وإذا ذكر الله فإنّه (أنا) الذي يذكر الله ذكراً كثيراً، وإذا سبّح لله فإنّه (أنا) الذي يسبّح لله بكرة وأصيلاً، وإذا عشق الله فإنه (أنا) الذي عشق الله، وإذا فني في الله فإنه (أنا) الذي فني في الله، كرجوع القطرة إلى

البحر، تصديقاً للآيات الشريفة في سورة الفجر:- يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾.

وإذا تمّ الفقر فهو الله – كما يقوله الرسول الأعظم ص – فذلك أعلى درجات العرفان، وهو منتهى آمال العارفين.

فانظر كيف يصف إمامنا ومقتدانا الإمام عليّ عليه السلام المتقين، في خطبة همّام، في صفحة ١٨٤ من نهج البلاغة:- " قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى ".

فانظر يا عزيزي أين تكون قرّة عينك ! أليست قرّة عينك في العالم المظلم المتغيّر، والأفكار المتبعثرة التي لا تكاد تسيطر عليها، والأوهام التي تظنّ أنها الدين، وأنه الله ؟ إن قرّة عينك في كلّ شيء زائل وآفل ومتغيّر. إن قرّة عينك في كلّ شيء إلا ما لا يزول !!!

وما أعظم زهادتك فيما يبقى، وهو هويتك الثابتة وهذه الحقيقة الثابتة الباقية النورانية التي هي فيك، والروح الذي هو أنت وهو من الله وقد نفخه الله فيك ! وما أعظم زهادتك فيما يبقى، وهو الحقيقة العظمى ألا هو الله تعالى !!!

وإذا كشفت الحجاب عن عينيك، وشاهدت النور الإلهي، تراه ظاهراً للعيان، وهو من شدّة ظهوره مخفيّ عن العيون ! تماماً كمثال السمكة التي تعوم في ماء البحر، لم تجد في حياتها غير الماء. إن سألتها أين الماء ؟ قالت: أنا لا أرى الماء !!! والماء من شدّة ظهوره مخفيّ عن عين السمكة، لأنها لم تشاهد غيره طوال حياتها. كذلك الإنسان لم يشاهد في حياته ضدّا لله ، فكيف يا ترى يشاهد الله رغم ظهوره للعيان ؟ إنه الظاهر الباطن ! وأين ظهور الشمس للعيان كمثل ظهور الله سبحانه وتعالى !!!

يقول مولانا ومقتدانا الإمام الحسين (روحي له الفداء) في دعاء عرفة:-

إلهي تَرَدُّدي فِي الآثارِ يُوجِبُ بُعْدَ الْمَزارِ، فَاجْمَعْني عَلَيْكَ بِخِدْمَة تُوصِلُني إلَيْكَ. كَيْفَ يُسْتَدَلُّ عَلَيْكَ بِما هُوَ في وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إلَيْكَ ! أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ ما لَيْسَ لَكَ، حَتّى يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ !!! مَتى غِبْتَ حَتّى تَحْتاجَ إلى دَليل يَدُلُّ عَليْكَ ؟ وَمَتى بَعُدْتَ حَتّى تَكُونَ الآثارُ هِيَ الَّتي تُوصِلُ اِلَيْكَ ؟

ويقول عليه السلام في مكان آخر من نفس الدعاء:-

إلهي أَمَرْتَ بِالرُّجُوعِ إلَى الآثارِ، فَارْجِعْني إلَيْكَ بِكِسْوَةِ الأَنْوارِ وَهِدايَةِ الاِسْتِبصارِ، حَتّى اَرْجَعَ إلَيْكَ مِنْها كَما دَخَلْتُ إلَيْكَ مِنْها، مَصُونَ السِّرِّ عَنِ النَّظَرِ إلَيْها، وَمَرْفُوعَ الْهِمَّةِ عَنِ الاِعْتِمادِ عَلَيْها.

إن رجال الله مصونة أسرارهم عن النظر إلى غير الله، ومرفوعة هممهم عن الاعتماد على غير الله. نظرهم إلى الله وحده لا إلى التكاثر، واعتمادهم على الله وحده لا على التكاثر. فهم كانوا في الآثار أو التكاثر لكنّهم رجعوا إلى الله بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار. رجعوا إلى الله منها كما دخلوا إلى الله منها.

يقول مولاي وشيخي وأستاذي **صادق العنقاء** قدس سره:-

كلّ شيء موجود وثابت فهو الحقيقة. فكلّ ما لا يوجد ليس بحقيقة، وكلّ ما يوجد ولكنه غير ثابت ليس بحقيقة. فجسم الإنسان موجود ولكنه متغيّر، والفصول تغيّر وجه الطبيعة، والعشق والمحبّة تستقرّ في النفوس، ولكنها أحياناً تتحوّل إلى العداوة والأحقاد. والنجوم زاهرة في السماء كأنها خالدة، ولكنها أيضاً مصيرها إلى الأفول، وهي غير ثابتة. وإجمالاً كلّ ما نراه هو موجود ولكنه غير ثابت. وهناك أشياء كثيرة هي موجودة، ولكننا لا نراها وهي غير ثابتة. وهلم جرّا إلى أن نصل إلى أمر الله وحكمه القاطع بأن كلّ شيء فانٍ إلا اللطيفة الرحمانية الخالدة، التي يسميها كلّ مِنّا (أنا) في ذاته.

(أنا) ثابت ولا يتغيّر وغير مقيّد، لا يترك الزمان والمكان فيه أثراً، وكلّ نفس تعرفه إجمالاً، وأيضاً تعرف آثاره. فشخصية كلّ أحد مِنّا تعتمد على (أنا)، وعندما تنفذ معرفته في التفاصيل، تكون النفس قد وجدت ذاتها، وخرجت من محيط الموت، فتكون أحكامها في كلّ شيء قاطعة، ولا تحمل الخطأ.

هذا هو المعيار الثابت الذي لا يتغيّر، والذي يحمله كلّ واحد مِنّا في وجدانه. ولهذا قلنا: إذا كانت المعرفة على أساس الوجدانيات فهي ما نسميها العرفان العملي. والوجدان نستعمله بمعنى (أنا) الذي هو جزء من الحقيقة، ولا يمكن معرفته إلا بالحقيقة. فالعرفان الحقيقي لا يحصل للمرء إلا عن هذا الطريق. وهو نفس المعنى الذي قاله الحق في الحديث القدسي: " **أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري** ".

والنتيجة الأخرى التي نصل إليها من هذا الكلام، هو أن حصول الدين، على خلاف ما هو شائع بين الناس في الدنيا، ليس بالتدرّج، ومن أسفل إلى أعلى، أو بصورة الاستقراء، والوصول من الجزء إلى الكل. بل إنّ معرفة الدين وحصول العرفان ميسّر عن طريق معرفة الله فقط لا غير. وهذه المعرفة هي معرفة النفس بعينها، أو (أنا) الثابت الذي لا يتغيّر.

(أنا) هو الشعاع الرحماني، وسطوع الروح الإلهي الذي ينفخ في آدم، حتى يهبه الحياة. ونفخ الروح ليس مرّة واحدة في بداية الخلقة، بل النفخ يسطع باستمرار، ويهب الحياة للأموات في مقبرة الأبدان، حتى تصبح النفوس قابلة للحياة في ملكوتها، وإلا فالحياة تبقى حياة الخلايا والمعيشة البهيمية الزائلة. انتهى.

فالعلم بالألفاظ والأسماء هو النوع من العلم الذي نزاوله نحن البشر، ولا علاقة له البتة بنوع العلم الذي يزاوله رجال الله وأولياؤه الصالحون. فعلمنا نحن البشر في الألفاظ

والأسماء والسطور والكتب والمحاضرات وغيرها - يعني مجموعة من المعلومات المكتوبة أو الشفوية في شكل ألفاظ وعبارات. أما العلم الذي عندهم، ويقتبس منهم مريدوهم، فهو النور الذي قال عنه رسول الله ص: " **العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء** ". أو ما قاله الله جل وعلا في سورة النور: يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴿٣٥﴾.

فعلمهم في الصدور لا في السطور. أو كما يقول الله جل وعلا في سورة العنكبوت:- بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴿٤٩﴾. ولا يهتدي إليه المرء إلا على مائدة العرفاء وأولياء الله الصالحين - من صدر إلى صدر - في تواضع المريدين، وحاجة المضطرين، وبعد اجتياز الرياضات في السير والسلوك.

أو ما ترى أن الرسول ص يقول: " **من عرف نفسه فقد عرف ربه** " ؟ فالله سبحانه وتعالى قد نفخ فيك من روحه، وهذا الروح هو فيك، وهو الجزء من الحقيقة الذي يتواجد عندك، والله سبحانه وتعالى هو الحقيقة المطلقة. فمن عرف هذا الجزء من الحقيقة الذي هو فيه، عرف الحقيقة المطلقة.

وهذه المعرفة بالنفس هي في الصميم، لأنك تكتشف المعيار الثابت أو الميزان في وجودك ، كما ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة الرحمن: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾. فهذا الميزان لا يضعه الله فيك إلا عندما يرفعك إلى السماء، أي إلى ملكوت الله.

فلكلّ شيء معيار تقيس به الأشياء، وإلا اختلط الحابل بالنابل، واختلطت العلاقات بين الناس اختلاطاً عظيماً، تضيع فيها الحقائق.

فكما ذكر شيخي وأستاذي **صادق العنقا** قدس سره في كتابه السحر:-

لو لم يكن عندنا معيار للوزن وقياس المسافة وقياس الزمان، المعيار الذي لا يتغيّر مع تغييرات الزمان والمكان والعوامل الجغرافية، لما استطعنا إيجاد علاقات عادية مع

الناس، لا فرديّا ولا اجتماعيّا، ولا سياسيّا ولا اقتصاديّا. لهذا السبب يكون ضروريّا أن يكون لدينا معيار ثابت لا يتغيّر لقياس أيّ شيء. انتهى.

لذلك ترى رجال الله، الذين عندهم هذا المعيار الثابت لقياس أيّ شيء ، كلامهم ثابت، وأحكامهم قاطعة، لا تحمل الشكّ والريب. كلامهم اليقين لا يتزلزل قيد أنملة عن الحق، فهم أطواد اليقين، وعقائدهم كالجبال الراسيات، لا تزلزلهم الأحداث والتقلبات، ولا تهزّهم الرياح العاصفات، ولا تزعزعهم عن يقينهم الفتن الحالكات، ولا يزحزحهم عن رؤية الحق هجوم الظلمات.

يقول أستاذي العظيم الشيخ **صادق العنقاء** قدّس سرّه:-

إنّ الناس يخلطون خطأ، إفرازات الذهن والذاكرة، في الدرك القياسي للمسائل، بأصل الهُويَّة الثابتة، التي هي المحرّكة والمدبّرة لكلّ هذه التجسّسات والفضول البشري. وبالنتيجة فإنّ الآثار الحاصلة من النشاط الدماغي، قد خلطها البشر خطأ، مع المصدر الكلي لوجود الإنسان، الذي أسميه (الهُويَّة الثابتة) أو (أنا). فما أسهل الخلط بين الحجر والدرّ ! وبين الوعود الفارغة من جهة، وذهب التبر النقد من جهة أخرى ! ولهذا السبب تبقى الهُويَّة الحقيقية للفرد، في انتخابها ووصولها إلى المسائل الجديدة، والاختراعات العصرية، والاكتشافات العديدة، مخفية ومكنونة وراء المسائل والمظاهر.

ولأنّ الهُويَّة الأصيلة ليست في هيئة محدودة، قابلة للرؤية بعين الناظر، فالنتيجة هي أنّ الناس يعتبرون آثارها الوجودية الملموسة أصيلة. فلنضرب مثلاً مبسّطاً لتقريب المعنى إلى ذهن القارئ:-

خذ النواة مثلاً، فإنّ كلّ مختصّات الشجرة ومشخّصاتها الطبيعية، تكمن في النواة التي لم تزرع بعد، وفي عالمها الحياتي الذي ينطوي فيها. فهي تحمل في طيّاتها جميع

القابليات، وعوامل الرشد والتكثير والشكل، وتناسق الأجهزة الحياتية للشجرة. فهذه النواة الصغيرة وعالمها الحياتي هي هُويَّة الشجرة الثابتة الوجودية.

فمن نظر إلى الشجرة وأغصانها، وأوراقها وأثمارها، وطول سيقانها، وضخامة جذعها، فليبحث في هذه النواة (إن استطاع ذلك)، وفي كلّ جوانب عالمها الحياتي، القدرة الحاكمة في خريطة هذه الشجرة بديعة المنظر، واختصاصاتها المنضبطة. وهذا الأمر البتة ليس من المسائل المحسوسة والملموسة.

إنّ استحصال الأصلين الضروريين، وهما السعادة والبقاء، لا يتخذ صورته التحقيقية والإيمانية إلا في المركزية الثابتة لا غير. فلا يمكن نيل ذلك في الموجودية المتغيّرة للذهن والحواس، التي تتغيّر وتتلوّن مراراً وتكراراً، في احتكاكها الطبيعي مع المحيط الخارجي المتلوّن المتغيّر، وتفاعلاتها وتداخلاتها وانعكاساتها المتغيّرة، ومنتجاتها النسبية، التي لا يمكن حتى اكتشاف جزء من الحقيقة فيها.

لذا فإنّه من الضرورة بمكان، البحث عن المأمن الواقعي لهذه الحقيقة، التي هي هُويَّتك الثابتة، ومعرفته. فإنّ هذه الهُويَّة الثابتة هي التي تعرض موجوديتها في حشرها ونشرها مع الموجودات الأخرى. لأنّ مجال عمل هذين الهدفين - السعادة والبقاء - الذين هما مقيمان وناظرن في المناطق المجرّدة، لا يمكن تحقيقه إلا بالمعيار الذي هو متجانس معهما من نقطة نظر ماهيته - يعنى بالمعيار المجرّد لا غير. لأنّ:

القواعد التي تتعلق بالعالم المحدود لا تكون ملزمة في العالم اللامتناهي

فمثلاً لو تعلّمت منك كلمة، يعني لو أنّك علّمتني كلمة، وأنّني كررت هذه الكلمة آلاف المرات في كلّ ليلة وضحاها، فهل تكرار هذه الكلمة سيعالج الموت ؟

وهل تكرار هذه الكلمة سيوصلني إلى معرفة (أنا) ؟

ولو حفظت جميع ما قاله العظماء، وقرأت كلامهم آلاف المرات في كلّ ليلة وضحاها، هل سأعرف (أنا) ؟

وهل مراعاة الرسوم والتقاليد تعالج الموت، وتوصلني إلى السعادة والطمأنينة الواقعية ؟

وإذا أديت حركات معينة، هل سأصل بها إلى المعرفة ؟

وإذا كنت أملك الطعام ثم لا آكله، هل يوصلني ذلك إلى معرفة الله ؟

أو إذا أكلت حتى الشبع، هل يوصلني ذلك إلى معرفة الله ؟

أو إذا استعملت الاستدلالات، وأنصتّم إليها، هل ستحلّ لكم هذه المسائل ؟

وهلمّ جرّاً إلى كثير من هذه الأسئلة. فالواضح أنّ الجواب هو (لا) لكلّ هذه الأسئلة..انتهى.

فما الذي يعنيه مولاي صادق العنقاء ؟ إنّه يعني نفس الشيء الذي يعنيه الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول: " **العلم نقطة كثّرها الجاهلون** ".

فإذا أردت القدرة الحاكمة في خريطة الشجرة بديعة المنظر، ففتّش عنها في النواة، والتي هي ليست من المسائل المحسوسة والملموسة. وإذا قصدت معرفة النفس، ففتّش عنها في الهُويَّة الثابتة، وهي أيضاً ليست من المسائل المحسوسة والملموسة.

وإنّ العارف إذا نظر إلى الوجود وإلى نفسه، لم يرَ غير المبدأ الحقيقي، وغير الوجود الأصيل الذي لا يفنى، وهو الله سبحانه وتعالى، الذي يشعّ وجوداً في كلّ مكان وزمان. فالعارف منزّه عن التكاثر، وعلمه في النقطة التي كثّرها الجاهلون. فكلّ من كان خارج نطاق علم العارف، يعتبرها الإمام الباقر عليه السلام من الجاهلين، لأنّهم ألهاهم التكاثر، ولا يعرفون غير التكاثر شيئاً.

فاستقص الأمور حتى يتبيّن لك، فمع المخض يبدو الزبد ! أما العارف فعلمه إلهيّ ربانيّ، وهو علم مختصّ بالأنبياء والأولياء وعباد الله الصالحين. فلذلك لا يقارن هذا العلم بالعلوم الأخرى ، وأين الثرى وأين الثريا !

التلميذ:

لقد علمت بأنّ الطريق إلى الله قصير جداً في الطريقة الأويسية تأسّياً بنهج الإمام عليّ وسلمان المحمديّ وأويس القرنيّ عليهم السلام. وإذا اقتصرت الطريق إلى معرفة النفس ومعرفة الله بالدخول في السير والسلوك على نهج الطريقة الأويسية، وأنا في عزيمة وتصميم وثبات كطود الجبال الراسيات الشامخات كما قال السيّد حسين العالم:-

إمـــــا اللقــــــاء ووصـــــــله في رأسي   إمــا فــداء الــرأس في ســكري وأنـــسي

ووصلت إلى ما وصلت إليه،

فما هي العلامات التي أحسّها في نفسي تدلّ على وصولي إلى ربي ؟

أو بعبارة أخرى:

ما هي المباني الأساسية لتحديد الأهداف في مسيرة السير والسلوك وأقصر طريق للوصول إليها في الطريقة الأويسية ؟

الأستاذ:

باختصار العلامة البارزة هي أن تصل إلى (النفس المطمئنة الخالدة). هي نفس مطمئنة لا تشغلها المشاغل الدنيوية رغم وجودك في خضمّها. وهي خالدة لأنّك تربيت في أحضان العرفان الإسلامي، وبرزت فيك الروح الخالدة والتي لا تموت أبداً، بحيث

أصبحت تجلّيا للحيّ الذي لا يموت، كما قال إمامنا عليّ عليه السلام في وصفهم: " عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ ".

يقول الله تعالى: وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. فعندما ترفع السماء يوضع الميزان ويحصل للسالك ميزان ومعيار سماوي ملكوتي تستبين به طريق السماء واضحة وجلية، وتستبين به الأهداف واضحة وجلية، ويستبين به النهج للوصول إلى هذه الأهداف واضحاً وجليّا.

يقول مولاي وشيخي صادق العنقاء قدّس سرّه:

إنّ السعادة والبقاء قانونان أصيلان فريدان،

اللذان يضمّان كلّ السعي البشري من الطفولة إلى الموت

وبهذا الميزان نعرف ماذا نبحث عنه في الحقيقة، وما هو الشيء الذي يوصلنا إلى هذه الأهداف.

وسؤالي الآن:

هل حاجتك إلى السعادة المطلقة والنفس المطمئنة الراضية المرضية قد جعلت فيك عبثاً، وأن تحقيقها من المستحيلات ؟

وهل يمكن أن يودع الله فيك حاجة، ثم يجعل تحقيقها مستحيلاً عليك ؟ بالله عليك فكّر في هذا !

وهل يمكن أن تكون في نفسك هذه الحاجة الملحّة للبقاء والخلود، ثم لا يمكن تحقيقها ؟

هل من الممكن أن يودع الله فيك هذه الحاجة الملحّة للبقاء والخلود، ثم يجعل تحقيقها من المستحيلات ؟ بالله عليك فكّر في ذلك مليّا !

إذن أين يقع تحقيق السعادة المطلقة والنفس المطمئنة الراضية المرضية ؟ وأين يقع تحقيق البقاء والخلود للجنس البشري ؟

يقول حبيبي رسول الله ص:

موتوا قبل أن تموتوا

فأمر رسول الله ص لنا بالموت، هو الموت الوجداني بمعنى الانخلاع وجدانيّا عن الدنيا، لا الموت الذهني الفكري بمعنى تصوّر الموت بالفكر والذهن. أما الموت الوجداني العرفاني فهو أن تعطّل نشاطك الدماغي، وأن تجمع أفكارك، وتوقف تفكيرك، وأن تعطّل ذهنياتك، وتوقفها عن العمل. فالأفكار والذهنيات هي السدّ أمام الجمع الوجداني، وأمام التمركز في النقطة النورانية في القلب. فالموت هو الموت عن الدنيا، يعني الموت عن أفكارك وذهنياتك المبعثرة، والتي هي غذاء دنياك. علماً بأنّ الأفكار هي استمرارية مشاغلك الدنيوية. فالمشغلة الدنيوية مستمرّة حتى بعد المشغلة الدنيوية، وذلك في أفكارك تحملها معك مع الأسف الشديد. فإذا فرغت من مشغلة ما ، فالحذار الحذار أن تحملها معك في أفكارك في أوقات الفراغ. فأوقات الفراغ تستحقّ منك الجهاد الأكبر والرغبة في الله. يقول الله تعالى في سورة الشرح مخاطباً الحبيب المصطفى ص: فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾.

ولقد سمعت مولاي صادق العنقاء مرة يقول:

الحمار الذي ركبته في النهار لقضاء حاجاتك الدنيوية

ضعه في إسطبله بعد الاستفادة منه،

ولا تحمله معك إلى محراب صلاتك.

يعني بذلك أن لا تحمل أفكارك وهمومك الدنيوية معك بعد الاستفادة منها في قضاء حاجاتك الدنيوية، أي توقّف عن التفكير في المشاغل الدنيوية حالما فرغت منها، ولا تحمل أفكارها وهمومها في أوقات فراغك. أليس الأجدى أن تقضي أوقات فراغك في الاستغراق في الله والجذبة في الله، وأن تنجذب في الله وتجاهد نفسك الجهاد الأكبر، كما أمر الله تعالى رسوله ! فكم هو عظيم أن تنسلخ من عيوبك النفسية والروحية عيباً عيباً، حتى لا تتساوى يوماك، كما قال عليّ عليه السلام: " **مغبون من تساوى يوماه** " !

أما الروح الخالدة التي لا تموت أبداً، والنفس المطمئنة الراضية المرضية، فكيف الوصول إليها ؟ العلاج الشافي الكافي هو (الموت قبل الموت) تطبيقاً لأمر رسول الله ص: " **موتوا قبل أن تموتوا** ".

الموت هو الانتقال من نشأة إلى نشأة، من نشأة أعطيت فيها الأدوات لإرضاء رغباتك وعلائقك الدنيوية - وهي نشأة المشاغل - إلى نشأة سلبت فيها من هذه الأدوات - وهي نشأة الحالة الصرفة - حيث فيها حصاد ما اكتسبته في الدنيا، إن خيراً فخير، وإن شرّا فشرّ، فهي نشأة الأحوال لا الأعمال.

أما الروح الذي هو أنت، فهو باق في النشأتين. فإن كان روحك في جوار الله، في هذه النشأة، وفي أوج سعادة القرب، فهو في جوار الله، وفي أوج سعادة القرب والزلفى، أضعافاً مضاعفة في النشأة الأخرى، وذلك هو النعيم المقيم !

وإن كان روحك في حضيض شقاوة البعد عن الله، في هذه النشأة، فهو في حضيض شقاوة البعد عن الله، أضعافاً مضاعفة في النشأة الأخرى، وذلك هو العذاب الأليم !

ولماذا يتضاعف أضعافاً مضاعفة ؟ لأنّ الأدوات التي أعطيتها في النشأة الدنيا، وهي عالم المشاغل، تشغلك عن العذاب بإرضاء رغباتك وعلائقك الدنيوية. فأنت مشغول فيها بالتمتعات الجنسية ، وتمتعات الطعام والشراب، وتمتعات لغو اللسان والكلام الهراء، وتمتعات الاستماع إلى اللغو والغيبة، وتمتعات امتلاك متاع الدنيا وزبرجها وزينتها، وتمتعات الجاه والمقام والعلوّ في الأرض وغيرها.

وإذا لم تكن هناك كدورات المعاصي، وصدأ العلائق الدنيوية، لكانت كلّ نفس إنسانية قابلة لتجلّي النور الإلهي، ولكن المعاصي والعلائق الدنيوية هي التي تمنع الإنسان من أن ينخلع عن حضيض شقاوة البعد، ويرتفع إلى أوج سعادة القرب. وفي الحديث الشريف لسيدنا محمد ص:- " **لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض** ".

فإذا فهمت هذا، سهل عليك فهم المعنى والمقصود من كلام أفضل الرسل وأعلاهم منزلة محمد ص في حديثه الشريف: " **موتوا قبل أن تموتوا** ". وهذا الحديث له دور كبير في التربية العرفانية، حيث يتعرّض السالكون لهذا الموت قبل الموت. كيف ؟؟؟

عن طريق الرياضات والجهاد الأكبر، حيث يتعرّض السالكون في التربية العرفانية إلى رياضات وتمرينات للتحرّر من رغباتهم الدنيوية والعلائق النفسية بمتاع الدنيا وزبرجها وزينتها، أي إلغاء دور الأدوات في نشأة الدنيا، التي هي نشأة المشاغل. فيكون السالك ظاهريا يؤدي دوره في الحياة الدنيا، ويتمتع بالملذات التي أنعمها الله عليه،

إلا أنه في حقيقة الأمر مع الله ليل نهار، يشكره على نعمائه بكلّ جوارحه وبملايين الملايين من خلاياه وأعصابه وغيرها، بل بكلّ وجوده وروحه الذي بين جنبيه، فيكون متحرّراً من رغباته وعلائقه الدنيوية، ويكون مع الله وفي جوار الله دائماً أبداً، وحاله في خدمة الله دأباً سرمداً، وهذا هو الموت قبل الموت !

وفي نهاية المطاف، يصل السالك إلى ما ذكره السيد حسين العالم قدس سره من مقام الفناء في الله، في مقعد صدق عند مليك مقتدر حيث يقول:-

وبعد سلسلة من هذه الرياضات، يصل تدريجيّا إلى مقام، إن صرف شهوته فهو لله، وإن غضب فهو لله، وإن جعل أوهامه ترقص فهو لله، يغلق عينيه عما دون الله، وتنفتح بصيرته على الجمال الإلهي والجلال والكبرياء والآلاء، التي تملأ الكون من أقصاه إلى أقصاه. وبالتدريج يصل إلى مقام، يجد فيه نفسه تعيّناً، فالإنسان في الحقيقة لم يكن شيئاً مذكوراً ولا يزال، فالملك سواء كان خارجيّا (أي في الآفاق وسعة الأكوان) أو داخليّا (أي في الأنفس وأعماق مشاهدها) كلّه لله وحده.

ويذكر مولانا الإمام عليّ عليه السلام بعض صفاتهم الإلهية في خطبة همّام صفحات ١٨٣ و ١٨٤ من نهج البلاغة قائلاً:-

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ: مَنْطِقُهُمُ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمُ الْاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُمُ التَّوَاضُعُ. غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى الْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نَزَلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلاَءِ كَالَّتِي نَزَلَتْ فِي الرَّخَاءِ. لَوْلاَ الأَجَلُ الَّذِي كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْن، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ الْعِقَابِ. عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَالْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ

كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ.

وفي مكان آخر من نفس الخطبة يقول عليه السلام:-

قُرَّةُ عَيْنِهِ فِيمَا لاَ يَزُولُ، وَزَهَادَتُهُ فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ الْحِلْمَ بِالْعِلْمِ، وَالْقَوْلَ بِالْعَمَلِ.

وفي مكان آخر من نفس الخطبة يقول عليه السلام:-

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ. بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ. فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي الْمَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ. لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ.

ويقول السيد حسين العالم: " هناك طائفة من الناس شملتهم نظر العناية، ولا زالت تشملهم، فآثار الأنس بالله لا زالت باقية فيهم، رغم أنهم بعقلهم لا يعلمون بأنهم كانوا في عالم آخر، وهو عالم القدس وفي حضرة الأنس ".

وأقول إذا كان هناك مثل هذه الطائفة من الناس، كما يقوله السيد، وهم بالتحقيق هناك، وبأعداد لا يستهان بهم ، فأنا أخاطب هذه الطائفة. فاعلم يا عزيزي بأنّ عالم القدس وفي حضرة الأنس، الذي كنت فيه، لا يمكن الوصول إليه بواسطة العقل. فإنّ العقل المادي الذي تتمتع به، هو لدفع الضرر وجلب المنفعة، في هذه الدنيا، وليس معياراً وميزاناً ثابتاً تكتشف به عوالم الغيب. فإنّ كشف عوالم الغيب له معيار وميزان آخر في وجودك وفي أعماق نفسك، ألا هو حقيقة الوجدان النورانية أو الهُويَّة الثابتة.

فإنّك تكتشف موطنك الأصلي في وحدة الوجود، وفي عالم القدس وفي حضرة الأنس، حينما تستقرّ في (أنا) أو حقيقة الوجدان النورانية أو الهُويَّة الثابتة ، ألا هو الروح الذي هو من الله وقد نفخه الله فيك، وهو المعيار الثابت الذي لا يتغيّر، الذي تكتشف

به عوالم الغيب. فلأنه روح من الله، فهو ثابت لا يتغيّر، وهو الجزء من الحقيقة العظمى. وهذا الجزء الذي هو فيك ، تكتشف به الله سبحانه وتعالى وتتعرّف عليه. وبمعرفة الله، التي هي أوّل الدين، كما يقوله إمامنا ومقتدانا عليّ عليه السلام، تكتشف آفاق الدين وعوالم الغيب.

وحينما تستقرّ في وجدانك، تعلم مدى قوّة انتمائك إلى الوجود الباقي الذي لا يفنى، وإلى عالم القدس الذي كنت فيه. وتعلم مدى قوّة انتمائك إلى حضرة الأنس والسرور والسعادة المطلقة. وآثارها قويّة فيك، وهي الحاجة الملحّة التي تشعر بها إلى السعادة وإلى البقاء والخلود.

فانظر مليّا في نفسك، أما ترى هاتين الحاجتين مترسّختين فيك، بحيث إنّ مساعيك كلّها متوجّهة إلى تحقيقهما ؟ فإنّك ترى بوضوح بأني لا أعاملك بالبراهين الفلسفية، ولا بالاستدلالات الذهنية، فإنّ الذهنيات لا توصلك إلى الحقيقة العظمى الثابتة. والذي يوصلك إليها هو (الروح الذي هو منه وقد نفخه فيك)، وهو نور الله الذي يسطع فيك. فإذا اكتشفته فهو كما ذكره النبي ص: " **العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء**". فاكتشف في نفسك هذا العلم النوراني، حتى تكتشف الحقائق الكونية النورانية الثابتة !

فلقد قلت لك بأنّ مساعيك كلها متوجّهة إلى تحقيق السعادة والبقاء. ألا ترى أنك لا تحب الشقاء، وتحاول في كلّ مساعيك تحاشي الشقاء وتحقيق السعادة ؟ ألا ترى أنك البتة لا تحب الموت، وتحاول في كلّ مساعيك تحاشي الموت وتحقيق البقاء ؟ وإنك تحسّ في نفسك حاجة ملحّة للبقاء، وتقول: (لو أني بقيت مخلّداً ولم أمت، لكنت أسعد الناس). ثم إنك تحاول جهدك لإطالة عمرك قدر المستطاع، وتلتجئ إلى الطبيب لشفاء

أمراضك. لماذا ؟ حتى لا تموت بسبب ذلك المرض. ثم إنك تستعمل أساليب وقائية لدفع الأمراض عنك، وتسمّيها الوعي الصحي. لماذا ؟ حتى لا تبتلى بالأمراض ، وتموت في إثرها. ثم إنك إذا حدث لك أن ابتليت بمرض، استعملت أدوية لشفاء ذلك المرض. لماذا ؟ حتى لا تموت بسبب ذلك المرض. ولو اكتشف علاج للموت، واستطاع الطبّ أن يخترع دواء لإطالة العمر، لهرع الناس كلهم إلى استعماله بدون استثناء، طلباً للبقاء والخلود.

أما إذا فرضنا أن ذلك قد تحقّق، وطالت أعمار الأبدان إلى الأبد، لامتلأت البسيطة بالمعمّرين الذين حصلوا على العمر الخالد. وطفحت الأرض بأعدادهم الهائلة، وقلّ الغذاء والماء لاستمرارية بقائهم، ودفع الموت. وعانت الأجيال الناشئة معاناة عظيمة، فلا ماء ولا غذاء ولا قدرة على تنظيم الاقتصاد العالمي ودفع الموت. ونتيجة لذلك تموت الأجيال القديمة والأجيال الناشئة معاً، من المجاعة أو سوء التغذية، بسبب قلّة الغذاء وقلّة الماء. فقد استجرت بالخلود المادي أو خلود الأبدان، فراراً من الموت، من موت أسوء منه.

كما أنك تحسّ في نفسك حاجة ملحّة للسعادة. ففي كلّ محاولة من محاولاتك، تحاشيت الشقاء وحقّقت سعادة نسبية، ثم انقلب السحر على الساحر ، وتحوّلت السعادة النسبية إلى شقاء. وحاولت مرّة ثانية دفع الشقاء عنك وتحقيق السعادة، ثم اكتشفت بأنها سعادة نسبية، تتحوّل مرة أخرى إلى شقاء. ثم حاولت مرّات ومرّات، وفي كلّ مرّة تكتشف بأنّ السعادة التي حققتها نسبية ، تتحوّل مرّة أخرى إلى شقاء.

فلنضرب مثلاً أنّك، في مقتبل العمر، تتمنّى وتقول: (لو كان عندي عمل يدرّ عليّ دخلاً، لكنت أسعد الناس). ثم تحصل على العمل والدخل، ولكن ذلك لا يحقّق لك الرضا كاملاً. فتتمنّى وتقول: (لو كانت عندي سيّارة، لكنت أسعد الناس). ثم تكتشف

بعد هنيهة أنّ ذلك لم يحقّق رضاك كاملاً. فتتمنّى وتقول: (لو كانت لي زوجة، لكنت أسعد الناس). ثم تحصل على زوجة، وبعد هنيهة تكتشف بأنها لا تحقّق رضاك كاملاً، في حال كانت زوجة طيّبة. أما إذا كانت زوجة سيّئة سليطة اللسان، فتكتشف بأنك حصلت على الشقاء بدل السعادة. ثم تتمنّى وتقول: (لو كان عندي منزل أملكه، لكنت أسعد الناس). فتبذل مجهودات جبّارة للحصول على قرض مصرفي لشراء منزل. ثم تكتشف بعد هنيهة أنّ ذلك لم يحقّق رضاك كاملاً. وهلمّ جرّاً .... تبرز حاجات ماديّة أخرى، وتحسب أنّ تحقيقها يوصلك إلى السعادة. ولكنك في نهاية المطاف، تكتشف بأنّ إرضاء الحوائج الماديّة لا يوصلك إلى السعادة المطلقة والنفس المطمئنة الراضية المرضية. وتتمنّى لو كنت طيراً حتى تنفلت من الشقاء، وتحصل على ضالتك المنشودة !!!

فاللذّة المؤقّتة ليست السعادة والطمأنينة المنشودة، والبقاء المؤقّت على سطح هذه البسيطة ليس هو الخلود. أما إذا كنت تنشد السعادة المقيمة، والاستقرار والطمأنينة الدائمة، وهي البتة لا تتحقّق بالمتع والملذّات الدنيوية، وإذا كنت تنشد الخلود، فلا بدّ أن هاتين الأمنيتين مكتوبتان في فطرتك، ولا بدّ من وجود مصداقية التحقيق في وجودك لهاتين الدعامتين في فطرتك الصافية. فكلّ أمنية مكتوبة في فطرتك لا بدّ أن يكون تحقيقها ممكن، ولكن يجب أن تعرف كيف.

وهذه الأشياء لا يمكن أن تتحقّق إلا بالمعرفة التي هي غاية الخلق. يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:-

"كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف ".

ويقول أيضاً في الحديث القدسي:-

" يابن آدم أنا ملك لا أزال، اعمل بما أمرتك وانته عما نهيتك،

حتى أجعلك ملكاً لا تزال..

يابن آدم أنا حيّ لا يموت، اعمل بما أمرتك وانته عما نهيتك،

حتى أجعلك حيّاً لا تموت ".

ويقول عيسى عليه السلام:-

" اعرف نفسك أيها الإنسان تعرف ربك،

ظاهرك للفناء وباطنك للبقاء".

وليست السعادة هي الهدف الوحيد في فطرة الإنسان، بل هناك هدف أسمى في الفطرة البشرية، وهو الخلود الذي عمل له الإنسان منذ بداية وجوده، وعملت له الفراعنة في بنائها الأهرامات، وتخليد ملوكها وبعض أثريائها وكبار القوم فيها في صورة المومياء. وهذا كان مبلغهم من العلم. وجاءت الأنبياء لدعوة البشر إلى حياة الخلود والآخرة. فكانت دعوتهم إلى الله، وإلى الحقيقة التي تقول، بأنّ للإنسان امتداداً لا نهاية له في حياة حقيقية في عالم الخلود، وإلى حقيقة أن الحياة الدنيا ليست إلا ممرّا وجسراً لبناء الحياة في عالم الآخرة، ولبناء السعادة الأبدية التي تشمل السعادة والطمأنينة في الدنيا وفي الآخرة. وهذه الحياة الحقيقية ذكرها الله تعالى في سورة العنكبوت ٦٤: وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴿٦٤﴾.

وهذا ما أعنيه بالهدف الأسمى في السير والسلوك إلى الله، ألا هو (النفس المطمئنة الخالدة).

والنفس المطمئنة التي ذكرها القرآن المجيد، هي الثمرة اليانعة لهذا المسعى الشريف، والمجاهدة الرفيعة للإنسان السالك في طريق الله، وهي النفس المتشبّعة بالسعادة الحقيقية والطمأنينة والاستقرار في هذه الحياة، وأضعافاً مضاعفة منها في عالم الخلود والآخرة.



قال بايزيد البسطامي قدس سره:

شَرِبْتُ الحُبَّ كَأساً بَعْدَ كَأْسٍ

فَمَا نَفِدَ الشّرَابُ وَمَا ارتويْتُ

وأعقب عليه بأشعار مني أتمتم بها في تناغم مع تسبيح الخلائق بالغداة والعشي كأنها خليّة من خلايا النحل ولها دوي كدوي النحل:

وما عهد الخلائق من شراب — على درب الخلود به سقيت
وفي هذا الشراب حياة قلبي — حياة الخلد لا مت ولا فنيت
سقانا ربنا طهراً طهوراً — بقاء الخلد لا سقم ولا موت
سقيت بجوده كأساً دهاقاً — بفضل منه للعليا سموت
وما قدري وما وزني لديه — بفضل الله بالسقيا نجوت
فما استحققت يوما من عطاء — بفيض الرب فزت كيف شئت
أفاض الودق في كرم وجود — فأرضي أنبتت وأنا ربوت
ففقري في الورى للخير صرف — وخير الله من فوقي رجوت
ومزن الله إن درت أصابت — عطاشى في الورى مثلي رويت
قداح أعوزت من كل حشو — فسال الفيض فيها فاستويت
مفاقر قد خلت من كل شيء — تجلى الله في كما ابتغيت

